

دفع الشبه عن الرسول (ص)

[119] وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (كان الله ولا شيء معه). وفي البخاري من رواية عمران بن حصين رضي الله عنه: (كان الله ولم يكن شيء قبله). وليس وراء ذلك (إلا) زيغ وكفر، فإن الدين ما قاله عزوجل وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد قال: { هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم } هو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء، كان ولم يكن شيء موجودا، والآخر بعد فناء كل شيء بلا انتهاء ويبقى هو. والظاهر هو الغالب على كل شيء. والباطن هو العالم بكل شيء. هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما. والأقوال في ذلك كثيرة: ومنها قول أبي القاسم الجنيد: نفي القدم عن كل أول بأوليته، ونفي البقاء عن كل آخر بآخريته، واضطر الخلق إلى الأقرار بربوبيته لظاهره، وحجب الإدراك عن إدراكه كنهه وكيفيته بباطنيه. وقال أيضا: هو الأول بشرح القلوب، والآخر بغفران الذنوب، والظاهر بكشف الكروب، والباطن بعلم الغيوب. وقال السيد الجليل محمد بن الفضل: الأول ببره، والآخر بعفوه، والظاهر بإحسانه، والباطن بستره. ومن حق العبد أن يجعل له حظا من هذا الخطاب، فيزين ظاهره بأنواع الخدمة، ويزين باطنه بأنوار الهيبة، ويحقق جميع أفعاله وحركاته وسكناته وسائر طاعاته وقرباته بالصدق والأخلاص، لقوله عز وجل: { والله بكل شيء عليم }. وسأل عمر رضي الله عنه كعب الأحبار عن معنى هذه الآية، فقال: إن علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن.
